الباب الثالث

فى حكم ملك الأتراك
مع ختنه الزاهد شيخ النساك

obeikandl.com

obeikandl.com

[١٩] قال الشيخ أبو المحاسن ؛ حسان صاحب الحسن والمحاسن والإحسان : ثم نهض الحكيم حسيب الأديب الأريب ، ووقف فى مقام حده وقبل موطىء أخيه بشفاه خده .

وقال : لقد بلغنى أيها السلطان أن فى قديم الزمان ، كان فى الترك ملك يسمى خاقان[١] ؛ من الملوك العادلين والسلاطين الفاضلين ؛ برسم العدل معروف ، وبقصم الجور موصوف ؛ كِسْرُ الأكاسرة ، وقصر الأقاصرة ، ونحر الجبابرة ، وثغر فم الذعار النبالة الفاغرة[٢] ، ملك بلاد الختن والخطا[٣]، واستولى على ممالك المغل والحنا[٤] ، وأطاع أوامره الترك والتتار ، واستسلم لرأيه سكان الدست[٥] والقفار ، وكان يأجوج من جملة خدمه ، ومأجوج من بعض عبيده وحشمه ؛ كأنه وارث لذرية يافث[٦]، قوى فى أخذ الملك من ممالك الصين ، وأخذ إلى أطراف الشمال باليمين ، ولم يكن له من البنين والبنات مع كثرة السرارى والزوجات ، سوى بنت واحدة لطلعتها الأقمار شاهدة .

شَمْسٌ ولاَ كالشَمْسِ عِنْدَ زَوَالِهَا بَدْرٌ ولاَ كَالبَدْرِ فِى نُقْصَانِهِ

بل بهرت الشمس جمالا والبدر كمالا ، وفاقت سلاح الدنيا شمائل وخصالا، وهى عزيزة فى قلب أبيها ، كريمة على خواصها وذويها ، فصارت ملوك الأطراف يخطبونها ومن أبيها يطلبونها ، فكان أبوها يفوض

---

(١) علم واسم لكل ملك .

(٢) أى فم الأهوال المخيفة ، المفتوح عن آخره .

(٣) بلاد الختن : بلاد الصيد وما حازاه . معجم البلدان (٤١٣٣) .

(٤) المغل والحنا : بلاد الهند وما حازاها .

(٥) الصحراء .

(٦) من أبناء نوح عليه السلام .

الأمر إليها ويعتمد فى تزويجها عليها ، وهى لا ترغب فى طالب ولا تصغى لخطبة خاطب إلى أن عنست ، وخطابها أيست . وكان أبوها كما ذكر ذا فطنة بالغة ، وهيبة دامغة . فخشى حوادث الزمان واختلى بها فى مكان ، وقال : اعلمى يا معدن اللطائف ؛ إن البنت فى منزل أبيها كالماء الواقف ؛ إن مكث يأسن[1] ، وإن لم يستعمل أنتن ، ولا أقول ذلك ملالا ولا عجزا ولا استقلالا ؛ بل لابد للمرأة من زوج يلمها فيسترها ويضمها ، ونعم الختن[2] القبر وأحلى من البنت الصبر ، فإن رأيت الرغبة فى الزواج طلبت لك كفؤا من الأزواج ، وكان ذلك أستر لعرضك وأدنى لإقامة سنتك وفرضك، وأفرغ لخاطر أبيك ، وأشرح لخدمك وذويك .

فقالت : أحسن الله الرحمن إلى مولانا الخاقان ، وكفاه كل جانٍ من الإنس والجان إن البنين من جملة النعم والبنات من أعداد النقم ؛ ونعم الدنيا عليها الحساب ونقمها سبب الأجر والثواب ، قال رب الأرباب فيما أنزله من الخطاب فى محكم الكتاب ﴿**المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وخَيْرٌ أَمَلاً**﴾ [الكهف : ٤٦] .

وقد جاء فى بعض التفاسير أن : الباقيات الصالحات هى البنات ، فمولانا الملك يعد وجودى نقمة عليه من معبودى ، وأسأل الصدقات الملوكية، والمراحم الوالدية أن لا يعجل فى أمر تزويجى ، وأن لا يبادر كيفما اتفق إلى تزويجى ؛ فإن التأمل فى ذلك أولى وثناء فى الدنيا وثواب الأخرى ؛ وذلك لأن الكفاءة فى الزواج معتبرة وقد قرر ذلك الفقهاء البررة ، وإن لم يكن الزوج للمرأة كفؤ ، فزواجها به يقع سخرية وهزؤا ، ولا يفيد سوى الغرامة والفضيحة والندامة .

---

(١) يفسد .

(٢) الصهر .

فقال الملك : لا أزوجك إلا بكفء كريم ، يكون لك أدنى خديم وفى الناس أعلى مقام عظيم .

قالت : يا مولانا الملك وقاك الله شر المنهمَك ، لا تحمل اعتراضى على الإساءة ؛ وإنما أسأل عن كيفية الكفاءة ، فإن كانت بالملك والمال فإن ذلك فى معرض الزوال ، وإن كانت بإنشاب الأنساب[1] ، فإن ذلك خطأ لا صواب ، قال منزل الكتاب العزيز الوهاب ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ**﴾ [المؤمنون:١٠١] .

وقال من لا يجوز عليه كذبة «**من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»[2] .

وإنما الفقهاء حكموا بالظاهر والله يتولى السرائر ، ونحن فى قيد الانقياد ، ولا يسعنا إلا ما أمر به الشرع وأراد ، وأما أنا فكفئى الكريم ، إنما هو الكامل الحليم الفاضل الرحيم .

قال الملك : بارك الله فى رأيك وعقلك أنا لا أزوجكِ إلا بملك مثلِك ، أو ابن ملك مثل أبيكِ ، يرعاك ويكرم خدمكِ وذويكِ ، يعدل بالسوية ويحكم على سائر الرعية .

قالت : أيها الملك الكبير صاحب التاج والسرير ، أنا ما أعرف الملك إلا من يعرف بمُلْكِ الحكم على نفسه فى سيره ، ويكون متحكما متمكنا من الحكم على غيره ، فيحق أن يقال فى ملكه ذى الجلال ، خلد الله سلطانه وشيد أركان ملكه وبنيانه .

قال الملك : ومن هو ذاك بارك الله فيك وهداك .

---

(١) تأصيل النسب .

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجة : المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٥) والإمام أحمد فى مسنده (٢/٢٥٢) .

قالت : أما الحاكم على نفسه : فهو المالك لزمام جوارحه وحسه ، قد جعل خزائن القلب والسمع معدنا لجواهر العقل والشرع ، فمهما اقتضاه العقل مضاه وعمل بمقتضاه ، وما ارتضاه الشرع وقضاه كان فيه انقياده ورضاه ، قد تحلى بعقود مكارم الأخلاق ، ولو كان فى أسمال[1] أخلاق ، وشغل نفسه بتهذيبها ، واجتهد فى خلاصها من شرك عيوبها ، واهتم بعيوبه عن بعيده وقريبه وبغيضه وحبيبه ، فذلك الحاكم على نفسه المميز على أبناء جنسه .

وأما حكمه على غيره : فهو أن يكون فى سلوكه وسيره منعزلا عن الناس فى زوايا الباس ، لا يسأل عن أحوالهم وعيوبهم ، ولا ينظر إلى ما تحت أيديهم وجيوبهم ، مالكا لزمام العزلة ، متنعما بهذه النعمة الجزلة ، قد اتخذ التقوى والقناعة أحسن حرفة وأربح بضاعة ، قد سلم الناس من يده ولسانه[2] لا يدرى بشأنهم ، ولا يدرون بشأنه ؛ فذلك الحاكم على غيره الفائز من ملك الدارين بخيره . فهو الذى خلد ملكه وسلطانه واتضح للعالمين برهانه.

فإن وجد بهذه الصفات موافى فإنه لى كفء مكافى ، وإنه كالبدر جلى نقى الصدر لله ولى ، فإذا أنعم الزمان بمثل هذا منالا ، فنعم نعم وإلا فلا .

لا فجعل ملك الخَتَن يتطلب مثل هذا الخَتَن ، وأرسل القصاد إلى أطراف البلاد يسألون سكان الأكناف ، وقطان الأطراف عن موصوف بهذه الأوصاف ، واستمروا على ذلك مدة كل باذل جهده ، حتى أرشدوا بعد زمان أن المكان الفلانى فيه فلان ؛ رجل أعرض عن العَرَض ؛ فلم يكن له فى

---

(١) القليل من كل شىء .

(٢) إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)) . وهو حديث أخرجه الترمذى : كتاب الإيمان ، باب ما جاء فى أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (٢٦٢٧) وقال الترمذى : حسن صحيح .

الدنيا غرض ، وهو بحسن الصفات موصوف ، وفى كرخ العبادة[1] والاجتهاد معروف ، جامع لهذه الصفات ، ليس له إلى الدنيا وأهلها إلتفات، مشغول باكتساب الآخرة وطلب نعمتها الفاخرة ، وهو من نسل الملوك وقد ترك وراءهم السلوك ، وسلك فى العلم والعمل السبيل الأقوم حتى كأنه محمد ابن الحسن[2] ، أو إبراهيم بن أدهم[3] ، ولشدة ماهو لنفسه مجاهد سماه الناس الملك الزاهد ، فاجمع الخاقان على مصاهرته وجعل التقرب إليه قربة لآخرته، فأخبر ابنته به وكان جل مطلوبها ومطلوبه ، وعُقِدَ بينهم النكاح وحصل الفلاح والصلاح ، فوافق شن[4] طبقة وصار لعين مرامها كالحدقة ، ومضى على ذلك برهة وهما في طيب عيش ونزهة .

فاشتاق الخاقان فى بعض الأزمان إلى رؤية ابنته وسرور مهجته ، فقام لدارها بقصد مزارها لينظر حالها وما عليها ومالها ، فوجدها فى عيش هنى وأمر سنى[5] ، فسألها عن أحوال زوجها الزاهد ، وكيف صبرها على حالها الجاهد ، فأثت خيرا ، وكفت ضرا وضيرا ، وقالت : جميع ما يبرزه ويأتيه على حسب ما أريده وأرتضيه ، وارتفاعات أحوالنا بسعادة مولانا فى دفاتر الأمن منضبطة ، وعقود حياتنا بيمين صدقاته فى نحور الرفاهية غير منفرطة؛ غير أن بيتنا واحد وبسبب ذلك يتضرر هذا العابد فيه نبيت وفيه نقيل ، وبجوانبه مالنا من خفيف وثقيل وقوت ونقود وخادم ومولود ، فلا

---

(١) مكان العبادة .

(٢) محمد بن الحسن الشيبانى ، الفقيه الإمام ، قاضى المسلمين ، أحد الأعلام ، صاحب أبى حنيفة النعمان . البداية والنهاية (١١٠/١٠) .

(٣) إبراهيم بن أدهم ، من كبار الزهاد ، ومن تلاميذ الحسن البصرى ، قضى عمره فى السياحة والزهد توفى سنة (١٦١) هـ . سير أعلام النبلاء (١١٥٦) .

(٤) أى تآلفا وامتزجا .

(٥) رضى ورفعة .

يتفرغ من الغوغاء[1] للعبادة لأنها تستدعى عزلة العابد وانفراده ، وتخليه لمناجاة معبوده ليظفر من حلاوة الطاعة بمقصوده ، فأسأل مولانا الخاقان ذا الفضل والإحسان بيتا يتخلى فيه للعبادة ومكانا يضع فيه خرثى[2] البيت وعتاده ، فقال : حبا وكرامة وقربا وسلامة .

ثم اجتمع الملك بصهره الذى به فاخر وذكر له أنه أعطاه بيتا آخر ، أحدهما : يكون لخلوته ومبيته ، والآخر : يضع ما يحتاجه من عتاده وقوته .

فقال الزاهد : أيها الملك الماجد ، فعلت ذلك لتقسيم خاطرى ، وتوزع فكرى ومرائرى[3] ، ولا طاقة لى أن أتعلق بمكانين ، وما جعل الله لرجل من قلبين ، وإنما الزاهد من همه فى الدنيا واحد ، فإنه على عدد التعلقات يتوزع القلب الشتات ، وإذا تعددت الأماكن يحتاج كل منها إلى ساكن أو حافظ أو ضابط أو حارس أو رابط ، وأنا لا اعتماد لى بحفظ نفسى أيها الولى، فكيف يكون لى اقتدار على حفظ الأغيار وإذا انقسمت أفكارى وفسد بالى ، فكيف أقدر على صلاح حالى ، وأنَّى يَصلُح مع فسادى أمور معاشى ومعادى ، ثم إنى إذا وزعت نفسى فقد نبهت راقد حرصى، والحرص أفعى قاتل وأسد صائل يقتلنى بسهمه بل بمجرد شمه .

فقال الملك الكبير : لا تهتم لذلك أيها الزاهد الخطير ؛ فإن لى أماكن عديدة وقصور مشيدة وحواصل مصونة ، وخزائن مكنونة ، الكل تحت تصرفك واختيارك لا منازع لك فيه ولا مشارك ، فاجعل لكل جنس من قماشك وأثاثك ورياشك ، وما يقوم بأودك ومعاشك مكانا على حدة وناحية حفظ منفردة ، واتخذ لنفسك مقاماً خاصا بك لا عاما ، وأنا أقيم على كل مكان حارسا ، إن شئت راجلا وإن شئت فارسا ، فعند احتياجك إلى شىء أتاك هنا ميسرا من غير كد ولا عى ، وتفرغ أنت لعبادتك واشتغالك بأمور آخرتك .

---

(١) العامة من الناس .

(٢) أى قليل المتاع .

(٣) العزائم .

قال الزاهد : أيها الملك المجاهد الاغترار بالقصور من جملة القصور، والاعتماد على الحصون من دواعى الجنون ، وإذا ورد من الملك الغفور طلب على يد القبور فماذا تجدى الدور والقصور ، وماذا تنفع الحصون أو يدفع كل مكان مصون ، وإذا آذن بالجلول ذلك الخطب المهول تود النفس لو كانت القصور الممهدة والبروج المشيدة ، أذل من أفحوص قطاة[1] ، وأقل من عطش بزاة[2] وقد قيل :

قَميصٌ مِنَ القُطْنِ أو حُلَّةٌ ... وَشُرْبَةُ مَاءٍ قُراحٍ وقَوتِ
يُنَالُ بِهَا المَرْءُ مَا يُرتَجَى ... وَهَذَا كَثِيرٌ عَلَى مَنْ يَموتُ

واعلم أيها الخاقان ؛ إن النفس لها خادمان مطيعان مجيبان ، ولما تأمر به سميعان ، وهما الشهوة والحرص الشديد الدعوة . أما الشهوة : فرائد الأكل الكثير والشرب. وأما الحرص فعائد الرعونة والعجب وقد قيل :

فَهَذَا يَقُودُ إِلَى طَبْعِهِ ... وَهَذَا يَسُوقُ إِلَى رَبْعِهِ

فهما ليلا ونهارا وسرا وجهارا ، يزينان لها ما طُبِعا عليه ، ويجذبانها إلى ما جبلا إليه ، ويقاضيانها حقهما ويطالبانها مستحقهما ، ولابد للمخدوم من إقامة أَوْدَ خادمة واسترضاء أنيسه ومنادمه ، وقد قال من أتقن المقال :

إنَّ اللَّبِيْبَ أخا اللبيْب هُو الَّذى ... مَعَ تيهه يَحْنُو عَلَى عِشَاقِهِ
وَكَذَا الرَئِيْس وَأَنْتَ أكبر جنْسَه ... مَنْ فَاضَ فى الخُدَام مِنْ أرزاقِهِ
يَهْتَمُ إنْ حَضَروا لَهُ بَنُوا لَهُ ... يغتم إنْ غَابوا عَلَى أَشْوَاقِهِ
مَعَ أنَّ حِشْمَتَهُ وفائضُ عِلْمِهِ ... تَرقَى بِكُلِّ مُنْتَهَى استحقاقِهِ

---

(١) القطاة : الأنثى من الطيور . والأفحوص : المكان الذى تحفره القطاه ، لتحفظ فيه البيض .

(٢) بزاه ، مفردها باز : أحد الطيور الجارحه .

ولكن رضا هذين الخادمين غاية لا تدرك ، وفقد مقصوديهما نهاية عميقة المسلك ، وقد قال سيد الأنام عليه الصلاة والسلام يوما وهو بين الأصحاب كالشمس ليس دونها حجاب ، والبدر لا يحجبه سحاب : «لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»[١] .

والحرص مُهْلِك ، والشهوة قاتلة ، وكل منهما فى الدمار والبوار علة كاملة ، وناهيك يا ذخر الحق وغياثه أخبار اللصوص الثلاثة ، فطلب الملك من الزاهد إيضاح هذا الشاهد .

[٢٠] **فقال** : ذكر أهل الوراثة ، أن لصوصا ثلاثة ، كانوا على سبيل الاشتراك متعاطين أسباب التحرم والهلاك ، واستمروا على ذلك مدة حتى استولوا من الأموال على عدة ، ففى بعض الليال ظفروا بجملة من الأموال، ودخلوا إلى مكان داثر[٢] خال بنية الاقتسام وكانوا محتاجين إلى الطعام ، فوجدوا فى ذلك المكان الداثر صندوقا مملوأ من الجواهر ، ففرحوا وانشرحوا، وتصوروا أولئك الخاسرين أنهم ربحوا . فقالوا : إن اشتغلنا بقسمة هذا المجموع كُلِبْنَا وأهلكنا كلب الجوع ، فأولى طلب الطعام قبل الاقتسام ولو بأدنى التهام ويسير التقام . ثم أرسلوا مع أحدهم إلى المدينة ورقهم[٣] ، ليأتيهم بما يسد رمقهم .

فلما انفصل عن مكانهما وغاب عن أعينهما تحركت نفسه الخبيثة بشهوة أججبت تاريثه[٤] ، وقواها الحرص المشوم لشدة الشره الملوم ، ودعاه داعى الفساد إلى الاستيلاء بالانفراد ، فعزم على ختلهما فوضع فى الطعام

---

(١) حديث أخرجه البخارى : كتاب الرقاق ، باب ما يتقى من فتنة المال (٣٦ ، ٦٤) .

(٢) مهجور ، خرب .

(٣) الورق : الفضة . والمعنى : النقود .

(٤) التريث والهدوء .

سما لقتلهما ، وأما هما فعلى قتله عزما واستعدا لذلك بعد ما جزما ، ليصير المال بينهما نصفين ، ويصيرا فى ذلك كالأخوين الإلفين ، ويكون ذلك كأنه وراثة لأن شر الرفقاء ثلاثة ، ولم يدعهما إلى ذلك غير داعى الشهوة وأكد ذلك داعى الحرص ، وأبْخِسْ بها من دعوه .

فلما فصل ذلك بالأكل بادرا إليه بالقتل ، ثم بعد ما قتلاه عمدا إلى الطعام فأكلاه فبردا[1] فى الحال وتركا ذلك المال ولحقا بصاحبهما التالف ، وسيَّبا تليد[2] المال والطارف .

وإنما أوردت هذه الموعظة ؛ لأنها على أحوال الدهر موقظة ، وإن كان مولانا الخاقان فى أموره يقظان ، لكن قد قال رب العالمين ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الذاريات:٥٥] . واعلم يا مولانا الخاقان ، كفاك الله مكايد الشيطان وأنجح مقاصدك على مر الزمان ، أن الدرجة العلية والمرتبة السنية لا تُنال بقوة ولا عزمة ولا شجاعة ولا همة ، وإنما هى عناية ربانية وأسرار رحمانية لأقوام سبقت لهم من الله الحسنى وزيادة ، وانتظموا فى سلك أهل السعادة ، فهم أهل الفضل والسيادة ، أسبغ الله عليهم سواطع الأنوار وقطعهم عن قواطع الأشرار ، فهم السادة الأخيار والقادة الأبرار، قاموا بأداء ما وجب عليهم وتركوا ما خلفهم واستبشروا بما لديهم ، فأنوارهم ساطعة وأسرارهم لجميع الأوهام قاطعة ، تركوا زخارف هذه الدار وأرادوا دار القرار، وجوار الملك الغفار ، فهم الهداة إلى الله الدالون على الله ، لا يعتريهم كدر الأوهام ولا يشتغلون عن خدمة خالقهم مدى الأيام ، هم العباد المكرمون ، العباد المقربون ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين فى كتابه المكنون ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ**﴾ [يونس :٦٢،٦٣] .

---

(١) أى مات .

(٢) تليد المال : عزيزة وكثيرة .

واعلم أن أعدى عدوك بين جنبيك ؛ وهى نفسك التى قط ما رَكَنَتْ إليك، فاعص هواها ولا تعطها مناها ، فإن فى اتباعها الندم عاجلا والحسرة آجلا ، لا بقليل تقنع ولا بكثير تشبع ، ولا تظن أنها إذا أُعطيت مناها شكرت، أو إذا ذَكَّرتَها مَنْ بَرَأَها ذكرت ، بل متى أمنتها كفرت ، أو آنستها نفرت ، أو أرخيت عنانها بطرت وأشرت[1] ، وإن نالت مطلبا أو تناولت مأربا انتقلت عنه وطلبت أعلى منه ، فليس لها دواء إلا القمع عن دواعى الهوى كما قيل :

النفسُ راغبةٌ إذَا رَغَبْتَهَا وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَع

وكما قيل أيضا :

وَمَا النفسُ إلاّ حيثُ يَجْعَلُهَا الفَتَى فَإنْ أُهمِلتْ تَاقَتْ وإلاَّ تسلتْ

وكما قيل أيضا :

قنع النفس بالقليل وإلا طلبت منك فوق ما يرضيها

وإياك وطول الأمل فإنه مفسدة للعلم والعمل .

قال الحكماء وعقلاء العلماء : الأمل شبكة الشيطان ، وموجب الحرمان، فاجهد مادام لك على النفس ملكة أن تخلص نفسك من هذه الشبكة ، ولا تهتم للأقوات فكل ما قُسِّم ما فيه فوات وكل ماهو آت آت ، وكل مارقمه[2] القلم فى القدم وأثبته قضاء الله تعالى عليك وأنت فى العدم ، سواء كان خيرا أم شرا نفعا أم ضرا ؛ فأنت ملاقيه وعلى كل حال موافيه ، فاقطع دواعى الطمع عمن لا يضر ولا ينفع لا عمن إن شاء ضر وإن شاء نفع ، ولا تجتمع إلا بمثلك فى الجماعات والجُمَع ، ولا تتعب لجوع وعرى واكتساء

---

(١) بطر ومرح .

(٢) كتبه .

وشبع ، فقد قيل : إذا شبعت فلا تهتم للجوع فكم من شبعان مات قبل أن يجوع ، وإذا اكتسيت فلا تهتم للعرية ؛ فكم من مُكْتَسٍ مات وثيابه جديدة مطوية .

واعلم أن طبع الدنيا بالمخالفة كأنها على المخالفة محالفة ، فإذا ضممت عنها يدك إليك أقبلت عليك وجاءت تهوى تحت قدميك ، وإذا طلبتها هربت ، منك وكلما ارتبطت إليها انحلت عنك وقد قيل أيها الملك الجليل :

مثل الرزق الذى تطلبه ، مثل الظل الذى يمشى معك أنت لا تدركه مستعجلا ، وإذا وليت عنه تبعك .

ثم اعلم أيها الخاقان : إنك وإن كنت ذا التصرف والسلطان ، وأن هذه الخلائق رعيتك نافذة فيها بمراسيمها مُنْيِتِك ، إلا أنك فى الحقيقة واحد منهم لا تزيد بشىء فى الذات والصفات عنهم ، ولكن الله القديم العالم الحكيم سلطان السلاطين بل خلق الأولين والآخرين رفعك عليهم ، وتقدم بأمره أن يطيعوك إليهم فقال من له الخلق والأمر ﴿**أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ**﴾ [النساء:٥٩].

فهم قد أذعنوا لك وأطاعوك فراعهم كما هم راعوك ، واطلب لهم أسنى المراعى وأبهاها ، وأوردهم أعذب المشارب وأصفاها فإن الملك الذى سلمهم إليك ، سوف يتقدم بالسؤال عنهم إليك ، وقد قال من أنت خليفته على أمته «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[1] . فكن لهم كما تريد أن يكونوا لك ، ودِنْ لهم كما تحب أن يدينوا لك .

واعلم أيها الملك الودود : أن هذه النقود إن لم تصرف فى مصارفها ،

---

(١) حديث : أخرجه البخارى : كتاب النكاح ، باب ﴿**قوا أنفسكم وأهليكم نارا**﴾ (٥١٨٨).

وترفل[1] فى وجوه الطاعة فى مطارفها[2] فإنها جمر يضرم فى نار جهنم كما قال من يقول للشىء كن فيكون ﴿**يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ [التوبة:٣٥] .

فاسمع أيها الملك الصالح نصيحة مشفق ناصح ، ولا تغتر بالدنيا وزهرتها ولا تنظر إلى حلاوتها وخضرتها ، وإياك والميل إلى نزهتها ونضرتها ، فإنك إن مِلْتَ إليها أسرتك أو جُبِرْتَ على الركون إليها كَسَرَتْكَ ، وحسبك من كلام الرب الغفور ومن بيده مقاليد الأمور ﴿**إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ [لقمان:٣٣] .

قال الراوى لهذه الحكم والفتاوى : فلما وعى ما قال الخَتْنُ هذه النصائح الصادقة من الخَتْن أمر بها فسطرت ، ثم نشرت وشهرت وعلى المنابر قُرِئَت وعلى رؤس الأشهاد ذكرت ، وأبلغها ابنته وقرر لها مقدار زوجها وحكمته وميله عن الدنيا ورغبته .

فقالت : هذا الذى كنت أردته وعلى مسامع مولانا الخاقان سردته . ثم إنها أقبلت على طاعة ربها وبعلها ، وإصلاح أحواليها فى قولها وفعلها ، وقضيا عمرهما فى أنواع العبادة ، واكتسبا بطاعتهما فى الدارين الحسنى وزيادة ، ثم اقتدى بهما الملك وعسكره ؛ حتى انتشر فى آفاق المملكة بالعدل والصلاح خَبَره ، إلى أن اندرج إلى رحمة الله تعالى ذلك الرعيل[3] وبقى ذكره مخلدا على صفحات الأيام جيلا بعد جيل ، وقد قيل فى ذلك ممن أحسن القيل :

كَانُوا شُمُوساً تُضِيء الدَّهر طَلْعَتَهُم ... وَفِى طَرِيْق المَعَالِى يُقْتَدَى بِهِم
غَابَتْ فَلَوْلاَ سَنَاهُم كَالبَدُور أضا ... مِنْ بَعْدهم تاه أهلُ الفضل فى الظُّلَم

---

(١) تنفق .
(٢) أى فى أماكنها وحدودها .
(٣) الجيل من الناس .

هكذا يكون طالب السعادة الأبدية والكرامة السرمدية[1] ، إذا ملَّكَه الله زمام الرعية يحسن سيره فى الدنيا ويتيقظ لتحصيل السعادة الكبرى ويشتغل بما يرضى عنه المولى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوَة إلا بالله العلى العظيم .

تمت بحمد الله تعالى نوادر ملوك العرب والعجم والأتراك ، ويلى ذلك مباحث زاهد الإنس العالم مع شيطان الجن الآثم الأفَّاك . ونسأل الله المسئول أن يحقق لنا من كرمه وإحسانه المأمول ، ويعصمنا بفضله من عثرات الفضول ، والصلاة والسلام على أعظم نبى وأكرم رسول وعلى آله وأصحابه، وأكرم بالصديق[2] ، والفاروق[3] ، وذى النورين[4] ، وزوج البتول[5]، وإخوانه من الأنبياء والمرسلين ، صلاة وسلاما يشتملان العفو عنا والقبول ويُمِنُّ بالكرم والفضل على قطوعنا بالوصول آمين .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) المستمر الأبدى .

(٢) هو لقب أبو بكر الصديق ﷺ ، لقبه النبى ﷺ عند تصديق إياه لخبر الإسراء والمعراج . الإصابة (٩٦٣٦) .

(٣) هو لقب عمر بن الخطاب ﷺ لقب به لتفريقه بين الحق والباطل . الإصابة (٥٧٥٢)

(٤) هو لقب عثمان بن عفان ﷺ لقب به لزواجه من ابنتى النبى ﷺ .الإصابة (٥٤٦٤)

(٥) البتول هى فاطمة بنت النبى ﷺ وزوجها هو على بن أبى طالب . الإصابة (١١٥٨٧) .